﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إحاطةُ الله بدواخل الصّدور سببُ عدمِ قَبولِه الشّفاعة في الظّالمين

بعد أن بيّنت الآيةُ السّابقةُ اقترابَ يوم التّلاق، ونفت وجودَ الصّديقِ الذي يهتم بأمر الظّالمين، والشّفيع الذي يشفع لهم، وتُسمع كلمتُه في شأنهم؛ ناسبَ أن توضّح هذه الآيةُ أنّ سببَ ذلك هو شمولُ عِلْمِ الله جميعَ أعمال خَلْقِه - بما فيهم الظّالمون - سواء ما كان من هذه الأعمال خافيًا وما كان ظاهرًا[1].

تيئيس الكافرين من خفاء أعمالهم على الله، بعد تيئيسهم من الحميم والشّفيع

ويمكن أن يُقال في المناسبة بينهما: إنّه بَعْدَ أنْ أيأسهم اللّهُ تعالى من شَفيع يَسْعَى لَهُم في عدم المُؤاخَذَة بذُنوبهم؛ أيْأَسَهُم مِنْ أنْ يتوهَّموا أنَّهُم يستَطيعونَ إخْفاءَ شَيْءٍ مِنْ نَواياهُم أوْ أدْنَى حَرَكاتِ أعْمالِهم عَلَى رَبِّهم ﷻ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَآئِنَةَ﴾: (خون) أصْلٌ واحِدٌ، وهو التَّنَقُّصُ. يُقالُ: خانَهُ يخونُهُ خَوْنًا. وذَلِكَ نُقْصانُ الوفاءِ. ويُقالُ: تَخَوَّنَني فُلانٌ حَقّي؛ أيْ: تَنَقَّصَني[3]، والمعنى المحوريّ: نقصٌ خطيرٍ - في خِفْيةٍ أو لُطْفٍ - مِنْ باطِنٍ أو حَوْزَةٍ كان في داخِلِها، كذَهاب الحِدَّة مِنَ النّظَر، والقوّة من الرِّجْلَين، ومن ذلك: خَوْن الأمانة المادّيّة بانتقاصها، أو أخذِها في خُفيَة، كالسّرقة. ومن معنويِّه: خيانةُ العهود والمواثيق، فعدمُ الوفاء نقصٌ، قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]؛ أي: انتقصتا حقَّهما بالكُفر[4]. وقولُه: ﴿خَآئِنَةَ﴾ يعني: ما انتقصتْه هذه الأعين.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 115.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خون).

2) ﴿ٱلصُّدُورُ﴾: (صدر) أصْلانِ صَحيحانِ؛ أحَدُهُما: يدُلُّ على خلاف الورد، والآخر: صَدْرِ الإنْسانِ، وهو الجارحة، وجَمعُهُ: صُدورٌ[1]، والمعنى المحوريّ: مُقَدّم جسمِ الشّيء أو أعلاه، الذي يبْدأ منه أضْخَمُه، كصدر الإنسان، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25][2]، وهو المعنى المراد هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توضِّحُ الآيةُ الكريمة أنّ الله الذي يحاسب النّاسَ يومَ القيامة، يعلم الأعينَ الخائنة التي تسترق النّظر إلى المُحَرم، وتختلسه اختلاسًا حتّى لا يشعر بها أحدٌ من النّاس، ويعلم كذلك ما تُخفيه الصّدور من الرّغبات والحاجات والنّوايا، ما يفيد أنّه تعالى يعلم أيضًا ما يصدر عن الجوارح من سعي الرِّجْلين، وبطشِ اليَدَين، ونظرِ العينين، وسماعِ الأُذنين، وكلامِ اللّسان من باب أولى، وأنّه سبحانه لن يترك شيئًا من ذلك بدون حساب، ولا جزاء[3].

حسابُ النّاس يوم التّلاق سيكونُ شاملًا ما ظهر من أعمالهم وما استتر

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

جاءت جملة: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنّها تُجيب عن سؤال أثارته في نفس المتلقّي جملةُ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ عن السّبب في عدم قَبول الشّفاعة في الظّالمين، فتأتي هذه الجملةُ لتوضّحَ أنَّ هؤلاء الشّفعاءَ لا يعلمون بواطنَ الأمور، ولو عَلِموها لَما أقدموا على الشّفاعة، ولَما قاموا بها؛ لأنَّ المشفوع له ليس أهلًا لأن يَشْفَع فيه أحدٌ[4]، ومن ثَمّ فُصِلت

لو عَلِمَ الشّفعاءُ ببواطن الأُمور، لَما أقدموا على الشّفاعة ولَما قاموا بها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (صدر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدر).
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 297.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 32.

عمّا قبلَها، كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال، فيما يُعرف بشِبه كمالِ الاتّصال.

نُكْتَةُ حَذْفِ فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾:

لا قُـدرة لأحـدٍ عـلى الـعِـلـم بخائنة الأعين ومـا تُـخـفـيـه الصّدورُ إلّا اللهَ تعالى

قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ جملة في محلّ رفعٍ، خبرٌ من أخبار ﴿هُوَ﴾ [غافر: 13] في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ [غافر: 13][1]، ويجوزُ أنْ تَكونَ خَبَرًا ثانيًا عَنِ اسْمِ (إنَّ) في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2]، ويمكن أن تكون جملةً تعليليّة لا محلّ لها من الإعراب[3].

وأوثِر إضمارُ فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾، أو حَذْفُه منها للعِلم به، إذ من البَدهي أنّه لا قدرةَ لأحدٍ على العِلم بخائنة الأعين، ولا على الإحاطة بما تُخفيه الصّدور من الأغراض والنّوايا إلّا اللّهَ جلّ في عُلاه، ما من شأنه أن يُزيل الشّكّ في قضائه، ويُؤكّد العدلَ في حسابه، وينفيَ الظّلمَ عن المُجازاة التي ستكون يوم التّلاق بأمره.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾:

عِلْم اللهِ تعالى يتجدّد بتجدُّد النّظر

عبَّر النّظمُ الكريم عن اطِّلاع الحقّ سبحانه على خائنة الأعين وما تُخفيه الصّدور بالفعل: ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لإفادته أنَّ هذا الاطلاع يكون على دقائق الأمور وتفاصيلها، جزئيّاتِها وكليّاتِها[4]، وفي إيثار الفعل المضارع دلالةٌ على أنَّ علمَه تعالى وإحاطتَه يتجدّدان بتَجدّد النّظرة الخائنة، وتَعدُّد المقاصد والنّوايا التي تنطوي عليها صدورُ خَلْقِه وقلوبُهم، ما يعني: أنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ نظراتِ الأعين المُسْتَرَقَةَ وإن كَثُرت، ويحيطُ بما يدور في الصّدور مهما تغيَّر أو تلوَّن. ودلالةُ المضارع في مثل ذلك ونحوِه لا تقف عند حدود تَجدُّدِ العِلْم به بتَجدُّدِ حدوثه؛ بل يدخل في هذه الدّلالة بقاءُ العِلْم، وعدمُ طُروءِ ما ينتقصه، تعالى اللّهُ عن كلّ ذلك.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 115.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانُه: 8/ 473.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 32.

نُكْتَةُ إضافة ﴿خَآئِنَةَ﴾ إلى ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾:

إضافةُ (خائِنَةَ) إلى (الأعْيُنِ) مِنْ إضافةِ الشَّيْءِ إلى آلَتِهِ

قولُه: ﴿خَآئِنَةَ﴾ مَصْدَرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه، فالخائِنَةُ مَصْدَرٌ على وزْنِ اسْمِ الفاعِلِ، مِثْلُ: العافِيةِ لِلْمُعافاةِ، والعاقِبَةِ، والكاذِبَةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقِعَة: 2]، ويجوزُ إبْقاءُ ﴿خَآئِنَةَ﴾ عَلَى ظاهِرِ اسْمِ الفاعِلِ، فيكونُ صِفةً لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾، أيْ: يعْلَمُ نَظْرَةَ الأعْيُنِ الخائِنَةِ، ومَعْنَى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: خِيانَةَ النَّظَرِ، أيْ: مُسارَقَةَ النَّظَرِ لِشَيْءٍ بِحَضْرَةِ مَنْ لا يُحِبُّ النَّظَرَ إلَيْهِ. فإضافةُ ﴿خَآئِنَةَ﴾ إلَى ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾ مِنْ إضافةِ الشَّيْءِ إلَى آلَتِهِ، كَقَوْلِهِم: ضَرْبَ السَّيْفِ[1]، وهذه الإضافة تدلُّ على أنّ الأعين تخون الآخرين وتغافلُهم بهذه النّظرة التي لا تُحِبُّ أن يلحظها أحدٌ، وكأنّها تُدْرِكُ خطأها عند القيام بها.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾:

اللهُ تعالى مُحيطٌ بالنَّظْرَةِ المُخْتَلَسَةِ التي هي أخفى الأفعالِ الظّاهرة

في قوله تعالى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، شُبِّهَ فيها الجَليسُ بالحَليفِ، في أنَّهُ لَمّا جَلَسَ إلَيْكَ أوْ جَلَسْتَ إلَيْهِ فكَأنَّهُ عاهَدَكَ على السَّلامَةِ، ألا تَرَى أنَّ المُجالَسَةَ يتَقَدَّمُها السَّلامُ، وهو في الأصْلِ: إنْباءٌ بالمُسالَمَةِ، فإذا نَظَرْتَ إلى آخَرَ غَيْرِكُما نَظَرًا خَفِيًّا؛ لإشارَةٍ إلى ما لا يُرْضي الجَليسَ مِن اسْتِهْزاءٍ أوْ إغْراءٍ، فكَأنَّكَ نَقَضْتَ العَهْدَ المَدْخولَ عَلَيْهِ بَيْنَكُما، فإطْلاقُ الخيانَةِ على ذَلِكَ تَفْظيعٌ لَهُ، ويتَفاوتُ قُرْبُ التَّشْبيهِ بمِقْدارِ تَفاوُتِ ما وقَعَتِ النَّظْرَةُ لأجْلِهِ في الإساءَةِ وآثارِ المَضَرَّةِ[2]. ويمكن أن يُقال: شُبِّهت الأعينُ بإنسانٍ يختلس النّظر إلى شيء لا ينبغي له النّظرُ إليه، بجامع الفضولِ والرّغبة في معرفة هذا الشّيء بأيّ شكلٍ من الأشكال، ثمّ حُذِف المُشبَّهُ به، ورُمِز إليه بشيءٍ من لوازمه وهي الخيانة، على سبيل الاستعارة المَكنيّة التي توَضِّح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 116.

قُدرةَ الله تعالى على الإحاطة بهذا الفعل، الذي هو "أخفى الأفعال التي يقوم بها الإنسانُ من الأعمال الظّاهرة"[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ لتعريف الجنس، ما يعني أنّ الله تعالى يعلم خائنةَ أعينِ الخلائق كلّهم بلا استثناء، مَن خانَ منها متى خان، ويدخل فيهم الظّالمون دخولًا أوّليًّا بُرهانيًّا، ويمكن أن تكون لتعريف العهد، والمُراد بها: أعينُ النّاس التي عُهِد منها الخيانة، ويختلسون بواسطتها النّظرَ إلى ما لا ينبغي لهم النّظرُ إليه.

الله تعالى عالِمٌ بما تُخفيه النّفوسُ وتختلسُهُ الأنظار

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ جمعَ قِلّة:

عَدلَ النَّظْمُ عن جمع الكثرة إلى جمع القِلّة لمجموع أمور؛ منها: أنّ القرآن كتابُ حقٍّ وصدقٍ، والأمر هكذا في الواقع؛ فجاء به القرآنُ مُطابقًا له، فإنَّ غَضّ البصر المتضمّنِ الاجتنابَ التّامَّ لهذه الخيانةِ هو خُلُق فطريٌّ كريمٌ، لا يفتقر إلى تشريع يُلْزِمه، وقد كان العربُ في الجاهلية يحفظونه ويُؤدّونه. والحقيقة أنَّ الكلَّ عليه ﷺ هيِّنٌ، لا صعوبةَ فيه، وأنّ الكثير عندَه في ذلك قليلٌ[2].

عِلمُ اللهِ تعالى بالكثير، كعِلمِه بالقليل تمامًا بتمام

فنُّ الفرائد في قوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:

في قوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ فنُّ الفرائد، وهو من فنون البديع، المُختصّ بالفصاحة دون البلاغة؛ فلفظة ﴿خَآئِنَةَ﴾ بمفردها سهلةٌ مستساغة كثيرةُ الجَرَيان على الألسن، فلمّا أُضيفت إلى ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ حصل لها من غرابة التّركيب ما جعل لها في النّفوس هذا الوقعَ، بحيثُ لا يُتاحُ الإتيان بمثلها، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذِهن مستقيم على شِبهها، وقد شَغَلت هذه الكلمةُ كبارَ العلماءِ وأربابَ الفصاحة، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "هو الرّجل

(خائِنَةَ الأعْيُنِ) من الفرائد التي لها في النّفوس وقع، بحيثُ لا يمكن الإتيانُ بمثلها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.

يكون جالسًا مع القوم، فتَمرُّ المرأةُ فيسارِقُهم النّظرَ إليها"، وقيل: "هي مسارقة نظر الأعين إلى ما قد نهى اللّهُ عنه"، وقيل: "هي قول الإنسان ما رأيتُ وقد رأى"، وقيل: "إنّه الرّمزُ بالعين"، وقيل: "هو النّظرة بعد النّظرة"، وقيل: "﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: هي النّظرة الثّانية، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾: النّظرة الأولى"، وقال ابن عبّاس: "وما تخفي الصّدور؛ أيْ: هل يزني بها لو خلا بها أو لا"، وقيل: "وما تخفي الصّدور: تُكِنُّه وتُضمِرُه"[1].

مَغْزى إفرادِ ﴿خَآئِنَةَ﴾ مع جمع ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:

التّرهيب من سوء الخُلُق بتشديد العقوبة مَلْمَحٌ قرآنيٌّ في التّربية

ربما بدا للبعض أنّ جمع ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ يُناسبه جمع مُضافه ﴿خَآئِنَةَ﴾، التي إن جُمعت جمعَ تصحيحٍ لمؤنث على (خائنات) لم يخرج ذلك عند إفادة القِلّة في جملتنا هنا على مذهب سيبويه الذي يرى ذلك أصلًا، أو على مذهب ابن مالك والجمهور الذين يرون اعتبار الملاءمة للمقام، فيما تُفيده جموعُ السّلامة من قِلّةٍ أو كَثْرة، وأنَّ إيراد العبارة بجمع المُضاف لا يمنع فهمَ الإفرادِ من المَغْزى، وقد عدلَ التّنزيلُ العزيز عن ذلك إلى نَصِّه الحكيم؛ ليُضفيَ على العين الخائنة نعوتًا من الوقاحة والاستغفال، واستمراءِ التّسبّب في إيذاء الخَلْق.

الخائنُ صيدٌ ثمين لأنّه يكون مفردًا

وذلك الإفراد مُؤذِنٌ أيضًا بترهيب الخائن، أنّه وقد أُفرد بات صيدًا ثمينًا لِمَنْ يترصدُه ويلحظُه، ويطَّلعُ على تَلَصُّصِه واستراقه؛ فإنّ الوَحْدَة نذيرُ شُؤم عليه، تكاد تُنبئ عن فَضْحِه وإمساكه مُتَلبّسًا بجُرْمه، وهي مَظِنّةُ كثرةِ الشّهود عليه، وتهيّؤُ الشّهادة لهم بمعاينتهم إيّاه، إذ لم يشغلهم عنه شاغلٌ، أو يتوزعْهُم عنه صارفٌ مُلِمٌّ، ففيه ترهيبٌ بعيدُ المدى، وذلك شأنُ كلِّ مَنْ لم يَخَفِ اللّهَ، يُخيفُه الخالقُ من بعض خَلْقِه؛ استهزاءً به وكيدًا له. ومثلُ هذا التَّخيُّر الحكيمُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 475.

في الأساليب ممّا يوْرِثُ خشوعَ العقول والألباب، كما يُلْزِمُ خضوعَ الأصلابِ والأعناق لهذا القرآن مثابةً ومهابةً.

سِرُّ إيثار تأنيث ﴿خَآئِنَةَ﴾ دون تذكيرها:

الخائنُ مغموزُ الرُّجولـيّـة، مَغموصٌ عليه في الشَّخصيةِ

عمد البيانُ القرآنيُّ إلى نبذ خائن الأعين بتأنيث لفظه بالتّاء؛ لتَتَردَّدَ العِلّة في ذلك بين إفادات مُرادة مُفهِمَة؛ منها: إرادةُ تقبيحِ الخيانة وتبشيعِها، والهَوْي بها في أسفل دَرْكٍ، فإنّ الخيانة من الأنثى أقبحُ، والخائنةَ أوقعُ. ومنها: أنّ خائن الأعين مغموصٌ عليه في قوّة شخصيّتِه واستقلالِ إرادتِه، من حيثُ جُبِنُهُ عن الظّهور بما يخشى من افتضاح دخيلته واتّضاح جليَّته، فهو كالمنافق، في قلبه مرضٌ، وفي عقله غرضٌ، وفي نفسه حَرَضٌ، فهو هاوٍ غِوايةٍ وغاوٍ هواية. ومنها: أنّ اعتبار التّاء للمبالغة قاضيةٌ بأنّه ما وشَمَه هذه الوَشْمَة، ولا وصَمَه هذه الوَصْمَة، إثرَ إلفِه الخيانة، بأن مَرَدَ عليها استحبابًا للعَمى على الهدى، ولولا هذا ما فضحَهُ اللّهُ ﷻ.

بـابُ الـتّـوبـة مـفـتـوحٌ أمـامَ الـجـانـي؛ فـإن تاب وأناب قبله الله

ومنها: أنّ التّاء قد تأتي لإفادة التّلبُّس بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحجّ: 2]، فيكون إيرادُها أفاد معنى أنّ الجاني بجنايته، فإن تاب وأصلح قُبِلَ منه، فيكون ذلك إغراءً خفيًّا لطيفًا بالتّوبة والأوْبة من الحَوْبَة؛ وذلك مَقْصِدٌ صحيح، وغرضٌ مَليح، وذلك كلّه جارٍ على عادة القرآن في ثراء البيان، والدّلالة على المُضادّات الكثيرة، والمعاني الكبيرة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾:

عـطـفُ أخـفـى أفـعـال الباطن عـلـى أخـفـى أفعال الظّاهر

جيء بقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ بالواو التي تفيد الاشتراكَ في الحُكم؛ للدّلالة على دخولهما معًا في عِلْم اللّه تعالى وإحاطتِه، فبعد أن ذَكَر سبحانه أخْفى أفعالِ

الظّاهر، أتبَعَه أخْفى ما في الباطن[1]؛ ليَعْلَمَ الظّالمون وغيرُهم أنّ الحساب يوم التّلاق سيكون شاملًا عادلًا خاليًا من الظّلم.

معنى (ما) وموقع الجملة بعدَها:

عِلْم الله تعالى متحقّقٌ مُتجدّدٌ، فهو يعلم ما تُخفيه الصّدور

(ما) في قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلّ نصب عطفًا على ﴿خَآئِنَةَ﴾، والجملةُ بعدَه لا محلّ لها من الإعراب صِلةُ الموصول، وفي التّعبير به دلالةٌ على أنّ اختلافَ الأزمنة غيرُ مُؤثّر فيه ﷻ، فإنّه لا يَتجدَّد له عِلْمٌ لم يكن يعلمُه، فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلمُه تعالى أزليٌّ سابق قديم.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿تُخۡفِي﴾:

عِلْمُ اللهِ بما في الصّدور يتجدَّد بتجدُّد الإخفاء

آثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل ﴿تُخۡفِي﴾ مضارعًا؛ لدلالته بمعناه وزمانه على تجدُّد عِلْم الله تعالى، بما يتجدَّد إخفاؤه وإضماره في صدور خَلْقه، من النّوايا والأغراض والظّنون على اختلاف أنواعها، وأوقاتِها، والأسبابِ الباعثةِ عليها.

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق ﴿تُخۡفِي﴾:

عِلْمُ الله تعالى شاملٌ كلَّ ما تُخفيه الصّدورُ من الخير والشّرّ وغيرِهما

آثَر النّظمُ حذفَ متعلّقِ فعلِ الإخفاء ﴿تُخۡفِي﴾؛ لما يفيده الحَذْفُ من عموم العِلْم وشُمولِه كُلَّ ما يخفيه الخَلْق في صدورهم، إخفاءً جِبلّيًّا أو مُتعَمَّدًا من الخير والشَّرِّ، والحُبّ والبُغْض، والنَّفع والضَّرِّ، والحسناتِ والسّيِّئات، وكلِّ ما يدور بالخواطر والأنفس ممّا قد يَظُنُّ الإنسانُ أنه لا اطّلاع لأحدٍ عليه، ولا يمكن الإحاطةُ به.

معنى (أل) في ﴿ٱلصُّدُورُ﴾:

الله تعالى يعلم ما في صدور خَلْقِه أجمعين بلا استثناء

(أل) في ﴿ٱلصُّدُورُ﴾ لتعريف الجنس، وهي تعني: أنَّ اللّه يعلم ما في صدور الخلائق كلِّهم بلا استثناء، ويدخل فيها صدورُ الظّالمين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.

دُخولًا أوّليًّا برهانيًّا. ويمكن أن تكون لتعريف العهد، والمراد بها: صدورُ أولي خائنةِ الأعيُنِ، ومِن ثَمَّ يحصُل منهم التّأنّي في الأقوال والأفعال والمقاصد والنّوايا.

بلاغةُ المجاز في التّعبير بـ ﴿ٱلصُّدُورُ﴾:

التّعبير بـ ﴿ٱلصُّدُورُ﴾ فيه مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المحليّةُ، حيثُ أطْلَق النّظمُ المحلَّ وهو الصّدور، وأراد الحالَّ وهو القلوب؛ لأنّ القلوبَ هي التي تنبض بالحركة، وهي التي تُضمر وتُخفي الأغراضَ والمقاصدَ والنّوايا، ولكنَّ البيانَ عدلَ في تعبيره عنها إلى ﴿ٱلصُّدُورُ﴾؛ لما يدلُّ عليه من السّعة والإحاطة والاحتواء، ما يعني: أنّ الله تعالى يُحيط بما في الصّدور كما يُحيط الوعاءُ بما فيه، ويَحفظُه كما تَحْفَظُ الصُّدورُ والأوعيةُ القلوبَ والأشياءَ بداخلها.

الله تعالى يحفظ ما في الصّدور، كما تحفظ الصّدورُ ما فيها

وثَمَّةَ وجهٌ آخرُ، كأنّه يريد أن يقول: إنّ القلوب لمّا أُشربت ما أودِعَ فيها، فاستحبَّتْهُ ودأبت عليه وبلغَ شغافَها، تقلّبَت القلوبُ حتّى صارت هي وما أودِعَ فيها كالشّيء الواحد، كأنّ القلوبَ المودَعةُ ما فيها صارت هي وما فيها ودائعُ بالصّدور؛ فمن ثَمّ ناسبَ أن يُنسب الإخفاءُ إليها، ونسبةُ الإخفاءِ إلى الصّدور دالّةٌ على أنّ القرآن من عند الله، والقرآنُ الحكيم يُصَدّق بعضُه بعضًا، وهذه الآية مُصدِّقةٌ مُصدَّقةٌ، ودليلٌ على أنّ القرآن من عند الله وحدَه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النّساء: 82]. وهذا يحمل في طيّاته البِشارةَ والتّرغيبَ للمؤمنين، والنّذارةَ والترهيبَ للمُنْكِرين، إذ ثَبتَ صدقُه وحَقُّه، وأنّه من عند الله تعالى.

القرآنُ الحكيم يُصدِّق بعضُه بعضًا

بلاغة الاستعارة في جملة: ﴿تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾:

يَصِحّ أن يكون في جملة: ﴿تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، شُبّهت فيها الصّدورُ بإنسان يَجِدُّ ويَجتهد في إخفاء الأمور التي لا يحبُّ أن يَطّلِعَ غيرُه عليها، ثُمّ حُذِف المُشَبّه به، ورُمِز إليه بالإخفاء الذي هو

صدور النّاس مملوءةٌ بما لا طاقةَ لأحدٍ بمعرفته إلّا الله

من لوازمه، على سبيل الاستعارة المكنيّة، التي تُؤكّد أنّ صدورَ النّاس مملوءةٌ بما لا طاقةَ لأحد بمعرفته إلّا الله.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصُّدور والقلوب:

الصّدْر: الجارحة، ويُسَمّى به مُقَدَّمُ جسمِ الشّيء أو أعلاه، الذي يبْدأ منه أضْخَمُه، كصدر الإنسان، وصدرِ السّهم، وصَدرِ الوادي، ومن ذلك قالوا: صَدْرُ كلّ شيء أوّلُه، ويأتي بعدَه سائرُه[1].

الصدرُ يعني العقلَ وسائرَ القِوَى، والقلبُ يعني العقلَ والعِلْم

والقَلْبُ: خالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وشَريفُه[2]، وهو باطنُ الشّيء ولُبُّه، ومنه المُضغةُ المعروفة؛ لأنّها أهمّ ما في الباطن وأقواه[3]. قال بعض العلماء: حيثما ذَكَر اللّهُ (القلبَ) فإشارةٌ إلى العقل والعِلْم؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذَكَر (الصّدْرَ) فإشارةٌ إلى ذلك وإلى سائر القوى؛ من الشّهوة، والهَوى، والغضب ونحوها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]؛ أي: العقول التي هي مُندَسّة فيما بين سائر القوى، وليست بمهتدية[4].

القلوب أوعيَةٌ لما لا يعلمُهُ إلّا العليمُ بها سبحانَه

ولمّا كان مقصودُ الآيةِ الكريمة الإعلامَ بسعَةِ عِلْم الله ﷻ وإحاطتِه بالنّوايا والمقاصدِ والشّهوات وغيرِها ممّا يخفى على النّاس؛ ناسبَ التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلصُّدُورُ﴾؛ لأنّها مجمَعُ ذلك ومستقرُّه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلب).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 392، 393.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»